تأملات في حياة العذراء القديسة والدة الإله

القمص لوقا سيداروس

اســـم الكتـــاب: تأملات في حياة العذراء القديسة والدة الإله

إعـــــــــداد: القمص لوقا سيداروس

الطبعـــــــــة: الأولى - نوفمبر ٢٠١١

الناشـــــــــر: كنيسة الشهيد العظيم مارجرجس - سبورتنج

المطبعـــــــــة: مطبعة دير الشهيد العظيم مارمينا العجائبي بمريوط

موبايل: ٠١٢٠ ٥٥٥٠٤٤١ & تليفاكس: ٠٣ ٤٥٩٦٤٥٢

لطلبات الجملة: ٠١٢٠ ٥٥٥٠٤٤٢

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

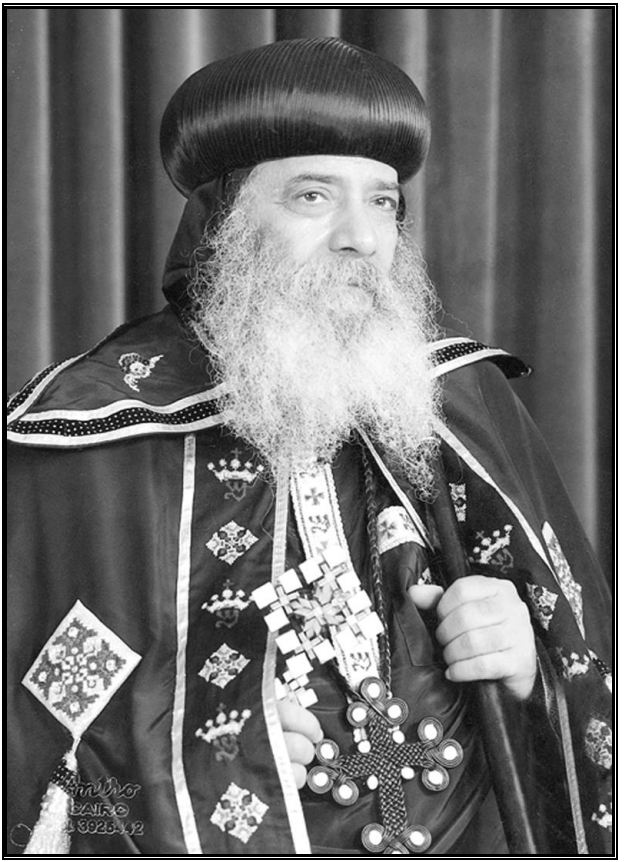

قداسة البابا شنوده الثالث

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية الـ ١١٧

العذراء المكرَّمة من المسيح

كان تابوت العهد الذي صنعه موسى رئيس الأنبياء بحسب المثال الإلهي الذي أراه الله إياه على الجبل.. مصنوعاً من خشب لا يُسوِّس ومطلياً بذهب خالص من داخل ومن خارج رمزاً وإشارة إلى طهارة كلية الطهر العذراء القديسة مريم والدة الإله التي استحقت أن تصير أُماً للمسيح الكلمة الذاتي.. الذي تجسد منها.

وكان في التابوت قسط المَنّ من ذهب.. الذي حوى الخبز الذي عال بني إسرائيل أربعين سنة في البرية متجدداً كل يوم وكافياً للحياة لمن يأكله. وقد قال الرب يسوع: **"أنا هُوَ خُبْزُ الْحَيَاةِ. آباؤُكُمْ أَكَلُوا الْمَنَّ فِي الْبَرِّيَّةِ وَمَاتُوا"** (يو٦: ٤٨-٤٩). فهو المَنّ الحقيقي خبز الحياة الأبدية "النَّازِلُ مِنَ السَّمَاءِ، لِكَيْ يَأْكُلَ مِنْهُ الإِنْسَانُ وَلاَ يَمُوتَ" .. بل يحيا حياة أبدية.

وقسط المَنّ الذهب الخالص هو العذراء كلية القداسة التي حلّ عليها الروح القدس وقدَّسها وطهَّرها وملأها نعمة.

ثم أمر الرب موسى أن يضع لوحي الشهادة.. الكلمات المكتوبة بإصبع الله في داخل التابوت.

فحين حل الكلمة في أحشاء البتول، لا كلوحيٍّ حجر ولا ككلمات مكتوبة، بل الكلمة الأزلي الكائن في حضن الآب كل حين.. "غير المرئي.. غير المحسوس.. غير المفحوص.. غير الزمني" صار في الحشا البتولي متحداً لاهوته بجسد بشريتنا وآخذاً شكلنا وطبيعتنا..

في بطن البتول صار الاتحاد الذي لا يعبَّر عن كيفيته ولا يُدرِك كماله الملائكة ولا رؤساء الملائكة.

هذه الكلمات العشر أي العشر وصايا الإلهية كانت في بطن التابوت شهادة لبني إسرائيل، وصارت مكرَّمة لدى جيل الأجيال وهى ناموس أي قانون إلهي.

وقد حملت الوصايا الأربع الأولى واجب الإنسان نحو الله، ثم جاءت الوصية الخامسة لتبدأ أوامر الله نحو الناس وفي مقدمتها الأب والأم. وهذه هى كلمات الله: أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ لِكَيْ تَطُولَ أَيَّامُكَ عَلَى الأَرْضِ الَّتِي هِى أَوَّلُ وَصِيَّةٍ بِوَعْدٍ (خر ٢٠ : ١٢ ، أف ٦ : ٢). أول وصية أعطى الله أن تكون لها مكافأة. وعلى العكس كان عقاب كسر هذه الوصية شديداً .. من شتم أباً أو أماً موتاً يموت. فعلى قدر الإكرام تكون المكافأة بالحياة. وعلى قدر الهوان جاء العقاب بالموت.

وقد تباين الناس على مدى الأجيال في حفظهم لهذه الوصية الإلهية ومدى تنفيذهم لها. كمثل سليمان الذي لما جاءت إليه أمه قام عن كرسيه الملوكي وسجد لها وأجلسها عن يمينه بإكرام جزيل.

وفي كل أجيال البشر احتلت الأم مركز الكرامة والإجلال والتعظيم من القديسين بل ومن رجال العالم الكبار والمشهورين، فتباروا في إكرام الأم ودورها ومقدارها.. بل كرَّسوا لها أياماً وأعياداً. وكان المنبع الرئيسي لكل هذا هو الوصية الإلهية القائلة بإكرام الأب والأم. فقد تأصلت وصية الله في جسد البشرية كلها.

يسوع المسيح ربنا وحده هو الذي أكمل الناموس عنا بكل معنى الكمال أمام الله والناس لأنه وحده الكامل.. هو واضع الوصايا وهو الذي أكملها عنا لما فشلنا وسقطنا.. ما عجز الإنسان عنه إذ كان في ضعف أكمله المسيح بجسده وحياته المنزَّهة عن الخطأ والخطايا.

فإن كانت ثمة أمثلة اِفتخر بها بني الإنسان في إكرام أب أو أم.. فإن الكمال لهذه الوصية ظل بعيداً عن المنال إلى أن جاء المسيح الإله متجسداً من العذراء.

فإن سألنا كيف أكمل المسيح هذه الوصية من جهة أمه العذراء القديسة مريم؟ فإننا نكون قد صعَّبنا السؤال. لأنه إلى الكمال النهائي ارتقى المسيح بالوصية، فلا يصل فكر كائن من كان إلى مقدار إكرامه لها وتمجيده وتعظيمه ورفعه إياها إلى ما فوق السماوات وجعلها أعلى من طغمات السماء.

كيف أكرمها وكيف عظَّمها ورفع شأنها؟ هذا ما سنطّلع عليه في الأبدية السعيدة.. ألم تقرأ عنها في الرؤيا التي رآها ابنها الحبيب يوحنا الرائي "**امْرَأَةٌ مُتَسَرْبِلَةٌ بِالشَّمْسِ، وَالْقَمَرُ تَحْتَ رِجْلَيْهَا، وَعَلَى رَأْسِهَا إِكْلِيلٌ مِنِ اثْنَيْ عَشَرَ كَوْكَباً**" (رؤ ١٢ : ١). كأنها هالة سماوية حول رأسها.

الشمس لا يجسر أحد أن ينظر إليها، أما هي فمشتملة ومتسربلة بالشمس.. هذه التي اتحد اللاهوت بالناسوت في أحشائها!! يا له من أمر يفوق عقل البشر بل والملائكة أيضاً.

فإن قالت الكنيسة في تسابيحها للعذراء والدة الإله "إنك ارتفعتِ أكثر من الشاروبيم وتكرَّمتِ فوق السارفيم". فإن هذا حق.

وإن قلنا: "إنها السماء الثانية" لأنها مسكن الله وجميع قديسيه الحائزين على الفرح الأبدي. فإن هذا حق.

وإن قلنا: إن جميع الفضائل المتفرقة التي تحلّى بها القديسون اجتمعت فيكِ فأنتِ المزيَّنة وحدكِ بجميع الفضائل وقد خصّك الرب وحدك بهذا الإكرام. فإن هذا حق.

وإن كان المسيح الإله المولود من العذراء أكرمها بحسب كرمه الإلهي.. فقد صارت طلبتها عنده قوية ومقبولة وشفاعتها ودالتها عنده لا توصف بوصف.

لذلك صرنا نتمسك بها في كل يوم وفي كل ساعة كأم شفيعة أمينة في جنس البشر الذين حظوا بنعمة التبنّي في المسيح فصارت العذراء لنا أماً بالحقيقة وصارت لنا ملجأ نلجأ إليه في كل ضيقة وكل شدة وكل ضغطات الحياة وحروب الشياطين.

والذي أكرمها لا يرد طلبتها، ومن أجلها يُحسِن إلى العالم كله.

???

تَحْفَظُ فِي قَلْبِهَا (لو ٢ : ٤١ - ٥٢)

لما كان الرب يسوع ابن اثنتي عشرة سنة وكان يذهب مع القديس يوسف والعذراء مريم إلى أورشليم في كل عيد.. قال الإنجيلي: إنهم بعد ما أكملا ما للعيد وعادا راجعين إلى الناصرة فبعدما سارا يوماً واحداً بحثا عن يسوع فلم يجداه بين الرفقة ممن في سنه.. وإذ سألا عنه الأقارب والمعارف ولم يجداه.. رجعا إلى أورشليم يطلبانه وبعد ثلاثة أيام وجداه في الهيكل مع المعلمين والشيوخ يسألهم ويجاوبهم. وكانوا مندهشين من كلامه وفهمه..

فلما وجداه قالت له العذراء القديسة: "يَا بُنَيَّ، لِمَاذَا فَعَلْتَ بِنَا هكَذَا؟ هُوَذَا أَبُوكَ وَأَنَا كُنَّا نَطْلُبُكَ مُعَذَّبَيْنِ! فقال لهما: لِمَاذَا كُنْتُمَا تَطْلُبَانِنِي؟ أَلَمْ تَعْلَمَا أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ أَكُونَ فِي مَا لأَبِي". ويذكر الإنجيلي أنهما لم يفهما كلامه أو ما قاله لهما ولكنه رجع معهما وكان خاضعاً لهما. ثم يستطرد الروح ويقول: أما أمه "فَكَانَتْ تَحْفَظُ جَمِيعَ هذَا الْكَلاَمِ مُتَفَكِّرَةً به فِي قَلْبِهَا"

ومن الأمور المثيرة للدهشة.. أنه غاب عنهما خمسة أيام منذ أن تركهما.. فقد سارا يوماً ورجعا في يوم آخَر وبعد ثلاثة أيام في البحث وسط الزحام أخيراً وجداه في الهيكل. فالهيكل

كما قالها بعد السنين هو بيت أبي.. فهو في أيام خدمته قام بتطهير الهيكل. وظهر كرب الهيكل صاحب البيت وباني البيت.. وهو هنا وهو في سن اثنتي عشرة سنة يجلس في وسط المعلمين لعله يفتح عيونهم ويضيء بصيرتهم.. لقد كان مزمعاً فيما بعد أن يفتح العيون وينير الأذهان والبصائر.. وهنا أنار أمام المعلمين سراج الكلمة وفكَّ ختوم السفر.. ولكن لم يكن نصيب المعلمين سوى الانبهار من كلامه ومن أجوبته.. لم يكن الرب يسوع قد دخل مدارس التعليم ولم يكن منذ طفولته قد جلس عند قدمي أحد من الفريسيين أو الكتبة.

فكيف إذن يعرف غوامض الكتب؟! بل إنه هكذا قالوا عنه أيام كرازته حين كان يتكلم بكلام النعمة الذي يحرك القلب وحين يتكلم "**كَمَنْ لَهُ سُلْطَانٌ وَلَيْسَ كَالْكَتَبَةِ**" (مت ٧ : ٢٩).

لما وجداه تكلمت إليه العذراء الأم.. لم يتكلم يوسف الذي دُعيَ أباً للمسيح.. كانت العذراء تعرفه بطريقة فريدة.. أليست هى الأم التي حملته في بطنها تسعة أشهر؟! وهو سكنها كجنين متحداً بجسدها.

أليست هى التي قدَّسها وخصَّصَها وجعل قوة العلي تُظلِّلها؟! فكان الشاروبيم يحوطونها، يحرسون السر الإلهي وشجرة الحياة.. يظللون على التابوت العقلي الحاوي المَنّ الإلهي في

سر لا يُدرَك.. هى تعرفه بطريقة خاصة لم يعرفه بها لا ملاك ولا رئيس ملائكة.. إنها أمه.. فهى حين كلّمته بهذه الصفة وهذه الدالة.. أجابها بكلام سري.. "أَلَمْ تَعْلَمَا أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ أَكُونَ فِي مَا لأَبِي؟"

طبعاً هى تعلم، وتعلم ما لا يعلمه أحد ولا يقدر أن يعلمه أحد.. "اَللَّهُ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ قَطُّ".. وها "اَلابْنُ الْوَحِيدُ" الكائن مع الآب صار ابنها.. فأي معرفة!

وعجبي على ما كتبه الروح إنهما - أي يوسف والعذراء - "لَمْ يَفْهَمَا الْكَلاَمَ الَّذِي قَالَهُ لَهُمَا". طبعاً عسير أن يُكتَب لم يكن يوسف يفهم ولكن العذراء كانت عارفة بما يجرى. ولكن لأجل اللياقة ولأجل اتضاع أم ابن الله قال الروح لم يفهما.. ثم استدرك الروح قائلاً: "أَمَّا مَرْيَمُ فَكَانَتْ تَحْفَظُ جَمِيعَ هذَا الْكَلاَمِ مُتَفَكِّرَةً بِهِ فِي قَلْبِهَا".

فقول الروح: "أَمَّا مَرْيَمُ" يُشير بوضوح أنها كانت تحوي في قلبها الأسرار التي تفوق كل عقل حتى عقول الملائكة.. ولكنها كانت تحفظها في قلبها الذي أحب المسيح ابنها قبل أن يُرى من الناس.. لقد كان قلبها خفاقاً بحبه وهو بعد في البطن جنين.

فالروح إذ يسجل أنهما لم يفهما إنما يتكلم عن القديس يوسف، لأن إدراك لاهوت المسيح وإظهار مجده أُستِعلن فيما بعد بدءاً بمعجزة تحويل الماء إلى خمر في عُرس قانا الجليل.

"**مُبَارَكَةٌ أَنْتِ فِي النِّسَاءِ**" (لو ١ : ٢٨). بالحقيقة مباركة ومكرَّمة جداً. اِرتفعتِ أكثر من السمائيين باتضاعك العجيب ونقاوة قلبك وبالطهارة التي كرَّستِ له نفسك فتشرّفت القداسة بانتسابها إليكِ.

من يقدر أن يصف؟! ومن يقدر أن يطَّلع على أسرارك؟! يا من صرتِ خدراً سماوياً للعريس الإله.

مِن القديسين مَن ارتقى إلى الالتصاق بالرب في الروح لكن ليس مَن عرف الرب جنيناً في البطن! من القديسين مَن عاش حياة الصلاة حتى اُختطف منه العقل في الدهش والرؤيا. ولكن ليس من احتوى الرب في الحشا فصار قريباً إليه كقربي أعضاء الجسد.

حملتِه في بطنك.. أرضعتِه من ثديك الطاهر.. ربيتيه كشبه إنسان.

اعتنيتِ بالذي يعتني بالخليقة.. وغذيتِ الذي يغذِّى كل ذي جسد.

سهرتِ بجانبه كالملائكة الذين لا يكفّون عن شكره.. بل أعلى من الملائكة لأنكِ صرتِ أُمّاً له.

لقد وضع القدير طبيعة الأمومة في النساء وجعلها أقوى

غريزة. فالطفلة تشتهي أن تصير أماً وهى لا تزال بعد في سن الطفولة ولعبتها المفضلة هى تمثيل دور الأم. والطفل هو أجمل مخلوق في نظر أمه مهما كان شكله، فعين الأم نحو وليدها شيء عجيب وقلبها نحوه هو أسمى عاطفة بشرية على الإطلاق.

يا تُرى يا أم المسيح، يا أم ابن الله المتجسد، يا أم يسوع كيف كان نظرك إليه وكيف كان قلبك نحوه؟!

إنها أمور لا يسوغ لإنسان أن يُدرك مداها مهما بلغ من قوة التصوّر ولكنها مُدركة لدى الذين حازوا روح المسيح وحبه الحاني.

???

ما أجمل أسرارك

أنتِ يا أمي عاينتِ الاتضاع وإخلاء الذات وتفكرتِ بهذا في قلبكِ وحفظتِ هذه الأسرار التي لا يُنطَق بها ولا يُعبَّر عنها.

ما انعقد منه لسان الملائكة حين شاهدوا إله الآلهة ورب الأرباب يُخلي ذاته من مجد لاهوته ويصير في الهيئة كإنسان ويضع ذاته حتى الموت موت الصليب.

كنتِ أنتِ يا أمي تراقبينه عن كثب ويجوز في نفسك سيف الآلام.. فأنتِ تعرفينه كما لم تعرفه الملائكة.. هم عرفوه كخالق لا يُرى وكنور لا يُدنى منه.

وهم سبحوه ويسبحونه بغير سكوت ولا فتور وهم يسترون وجوههم من أجل بهاء مجده غير المنظور ولا منطوق به.. وهم يقدمون له المجد والكرامة والعظمة والسلطان منذ أن خُلقوا وإلى أبد الآبدين ودهر الداهرين وهم كالكواكب في مساراتها.

وعندما وُلد منكِ بسر لا يُدرَك وإعجاز فاق كل تصوّر كيف كنتِ تتأملينه وتنظرين وجهه؟! وكيف كنتِ تتفكرين في ذاك الذي هو **"أَبْرَعُ جَمَالاً مِنْ بَنِي الْبَشَرِ"** (مز ٤٥ : ٢)؟!

قُبلات فمك على وجنتيه الصغيرتين وحبك الحاني نحو

رضيعك شيء مهول وأغوار لا يمكن للعقل البلوغ إليها.. عاطفة الأمومة التي خلقها الله فيكِ تحولت لحسابه وحده.. ما أجمل أسرارك!

حملتِهِ على ذراعيكِ الطاهرتين وهو حامل الخليقة بكلمة قدرته.. في اتضاعه العجيب اعتنيتِ به كطفل صغير وقلبك وعقلك وروحك تدرك جلاله المنزَّه عن الضعف.. ولكن اتضاعه زادك اتضاعاً.. وتفكرتِ في إخلائه لذاته فأدخل في أعماقك صفاء السموات عينها.

كل القديسين العظام كانوا يشتهون أن يتطلعوا إلى الحق الإلهي.. وأن يتمتعوا ولو إلى لحظات بالتحديق في النور الحقيقي حتى بالرؤيا العقلية غير الحسية وهذا رفعهم إلى المراتب العليا.. فأما أنتِ فقد تفردتِ بالنعمة الإلهية أن تنظريه وتتفرسي فيه، فقد اختصك دون سواك أن تحتضنيه وتحمليه بل وتدلليه كصغير بفرح لا يُنطَق به، وأسرار متبادلة تبدو للناظر في صورة الأم والطفل بحسب الطبيعة. ولكن جوهر الأمر أنكِ الأم العذراء والطفل الإلهي وحيد الآب الذي تجسد من جسدك الطاهر.

ولما نما قليلاً قليلاً بشبه البشر.. كنت تلاحظينه يوماً بعد

يوم وهو ينمو في النعمة والقامة.

اتضاعه أذهل الملائكة العارفين قدره.. كيف بحثتِ عنه بين الرفقة في رحلتكم نحو أورشليم وكيف وجدتِه بعد ثلاثة أيام في هيكل أبيه جالساً بين المعلمين يسألهم بل ويحيرهم، إذ كانوا قد أفسدوا الناموس واستبدلوه بوصايا الناس عن الحق، بل أغلقوا ملكوت السموات أمام الناس وحمَّلوهم أحمالاً عسره.

فلما وجدتِه قلت له: "هُوَذَا أَبُوكَ وَأَنَا كُنَّا نَطْلُبُكَ مُعَذَّبَيْنِ". فقال لكما: "أَلَمْ تَعْلَمَا أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ أَكُونَ فِي مَا لأَبِي؟".. ففي أدبكِ الجم يا كاملة في كل شيء قدمتِ يوسف البار على نفسك وفي سر كلامك قلتِ إننا كنا نطلبك معذبين. فرد الرب الإله كلماته المنزَّهة عن الخطأ.. فقال: "أَلَمْ تَعْلَمَا؟". وقد سجل الوحي بعد ذلك مباشرة أن الرب يسوع الطفل ابن اثنتي عشرة سنة في أيام جسده، وهو الأزلي الأبدي لا عدد لسنيه أنه رجع معكما وكان خاضعاً لكما.

تُرى من يستطيع أن يفك ختوم السفر؟! ولكن الروح سجَّل أنكِ أنتِ يا أم القدوس كنتِ تحفظين كل هذا متفكرة به في قلبك.. وهذا يعني أنكِ في إدراككِ الكامل لمولودك الإلهي ما كنتِ تَشُكّين لحظة في رسالته أو عمله أو برنامج الخلاص.

فالرب لا يصنع أمراً إلاَّ ويُري عبيده الأنبياء ما لابد أن يكون.. فإن كان تدبيره الإلهي مع من أحبوه من القديسين صار هكذا حتى قال مرة: "**هَلْ أُخْفِي عَنْ إِبْرَاهِيمَ مَا أَنا فَاعِلُهُ**" (تك ١٨ : ١٧).

فهل يُخفي عليكِ أنه في هيكل أبيه وأنه لهذا جاء إلى العالم؟! وهل يخطر على بالك أنه إذ لم يكن موجوداً مع الرفقة من أقرانه وأنداده بحسب الجسد أنه يكون قد فُقد؟!

حاشا، بل يقين الإيمان بلاهوته ووحدانيته مع الآب كان عميقاً في نفسك أعمق من حاسة الأمومة الطبيعية ودوافعها وانشغال الأم على وحيدها، ولكن لم يكن ممكناً أن يميز الروح بينك وبين القديس يوسف فقد دعاه الروح أباه وأنتِ يا قديسة قلتِ كذلك وعشتِ تُكرمينه. رغم أنه بحسب الجسد لا يَمُتّ للرب بصلةٍ فالرب وُلِدَ بغير زرع بشر. لذلك سجل الروح أنكما لم تفهما ما قيل لكما، ثم عاد الروح وسجل الاستدراك أنكِ في قلبك أغوار الفهم الفائق للطبيعة وعمق أفكارك ممتلئة من التطلع إلى الذي تستر الملائكة وجهها من التطلع إليه.

وخضوع الرب لكما كان هذا هو تدبير الإخلاء، أن يظل يوسف حارساً للسر الإلهي متكتماً عن ما لا يستطيع أحد أن يدرك أو يتحدث عنه.. وكما قاده الرب من البدء برؤى ملاك وأعلمه بحقيقة السر الإلهي وقاده في المسيرة خادماً للسر حتى

في الهروب إلى مصر والرجوع منها والترحال ومكان السكنى. هكذا ظل يوسف البار في براءته وسمو روحه ونقاوة قلبه رجلاً سرائرياً وديعاً مؤتمناً من قِبَل الله.

خضع لكِ يا أمي الذي تخضع له الملائكة، وكان خضوعه هذا يزيد خضوعك الذي بدا واضحاً من البداية حين أحنيتِ الرأس للرب الإله وأذعنتِ بخضوع فاق كل خضوع وقُلتِ للملاك المبشر **"هُوَذَا أَنَا أَمَةُ الرَّبِّ. لِيَكُنْ لِي كَقَوْلِكَ"** (لو ١ : ٣٨). كان خضوع الابن أمام ناظريكِ يزيدك جلالاً.. خضوع عجيب، فارتفعتِ باتضاعك وصرتِ أعلى من السموات.

???

عُرس قانا الجليل

في اتضاعه العجيب قَبِل يسوع دعوة حضور العُرس هو وتلاميذه. كان لابد أن يُبارِك بتجسده تفاصيل الحياة.. لما قَبِلَ أن يصير إنساناً لأجل الخلاص.. قدَّس كل ما للإنسان.. قدَّس الأكل والشرب والدخول والخروج والتعب والراحة والقيام والنوم والمشي على الأرض..

وقدَّس البيوت لما حل فيها، وطاف شوارع المدينة والحقول أيضاً.. بارك كل شيء، ومد يده وأبرأ الطبيعة من عجزها، العمى والبرص والاستسقاء والشلل والعجز بكل أنواعه. وحمل عن كاهل البشرية أمراضها ووضعها على ذاته.

وفي عُرس قانا الجليل قدَّس العُرس بحضوره. حقيقة الأمر الجوهري أنه هو هو العريس الحقيقي الذي اشترى عروسه بدم ذبيحة نفسه وقدَّسها بغسل الماء بالكلمة.. واقتناها لنفسه كعريس حقيقي، وأدخلنا إلى فرح العُرس الحقيقي ودعا نفوس المختارين عذارى حكيمات خرجن للقاء العريس.

في وجوده نقص الخمر المادي المشير للفرح عند الطبيعة القديمة. ولما فرغ الخمر فرغ الفرح القديم وتفرغ من معناه ومحتواه. فأشارت القديسة على الرب أن يمد المدعوين الحقيقيين

بالخمر الحقيقي ويبدأ بعمل التحوّل الذي جاء من أجله فيحول الماء إلى خمر ويحول الفرح العادي إلى الأبدي. ويكشف المعنى الحقيقي للعريس واهب الفرح وللعروس الذين هم خواصه.

فلما فعل آمن به تلاميذه ولم يعودوا يسيرون بعيداً عنه، بل التصقوا به وفرحوا بمعيته وبدأوا مشوار تبعيته حتى الصليب.
أما قمة الإخلاء فهى الآلام الطوعية التي بحسب التدبير.. حين أسلم ذاته بإرادته وحده عن حياة العالم.. وقَبِلَ آلام الصليب وصبر على الموت من أجل السرور الموضوع أمامه مُستهيناً بالخزي. فأوصاف الآلام التي جاءت في النبوات والمزامير كما هو مكتوب عنه شيء مهول.

فما بالك بالواقع الحقيقي ودوس المعصرة؟ وإن كانت هذه الآلام ثمن خلاص العالم وقد حررت أعتى الخطاة من براثن الموت. وقد تأمل فيها ملايين العباد وبسبب الحب المبذول على الصليب، بذل المؤمنون ذاتهم حباً في الذي قَبل الموت عنهم.
كانت هذه الآلام المُخلِّصة بالنسبة للعذراء القديسة تحوي بُعداً آخَر لم يعرفه أحد من الناس قط لأن الذي قَبل الآلام هو

ابنها وحيدها.. هكذا جاز في نفسها السيف الذي تنبأ عنه سمعان الشيخ الكاهن حين حمل الرب رضيعاً ابن أربعين يوماً.

نساء كثيرات نلن كرامات

لقد كرَّم الرب المرأة الخاطئة التي كانت معروفة في المدينة

كلها، التي استنكف سمعان الفريسي أن تدخل بيته واستكثر عليها أن تلمس قدمي المسيح.. ولكن الرب في حنانه كمُخلِّص للخطاة ترك لها قدميه لا لتلمسهما فقط بل وتقبلهما وتمسحهما بشعر رأسها.

وأسكت صوت المتضررين والمشتكين عليها وقال **"قَدْ غُفِرَتْ خَطَايَاهَا الْكَثِيرَةُ، لأَنَّهَا أَحَبَّتْ كَثِيراً"** (لو٧ : ٤٧). فإن كان الرب قَبِل قبلات الخاطئة على قدميه وشهد لقبلاتها إنها لم تكف عن تقبيل قدميه.. فكم يكون الحال مع قبلات العذراء كلية الطهر والقديسة العذراء كل حين؟!

وشعر رأس المرأة الخاطئة التي مسحت قدمي المُخلِّص حُسب لها عملاً مرضياً كأجمل أعمال التوبة.. فما بالك بالممتلئة نعمة وهى تحمله كصغير وتُدلِّلَه كوحيد.. طبعاً لا وجه للمقارنة!!

حتى الأرملة التي ألقت في الخزانة فلسين وجدت لها عند الرب مديحاً لعملها وحُسن مجازاة على صنيعها، فهو قابل العطايا ومُقيمِّ القرابين التي تُقدم إليه.

فكم بالحري من قدمت ذاتها قرباناً وذبيحة طاهرة بكل القلب والفم والحواس؟!

وحتى الكنعانية التي وثقت أنه يعطيها سؤل قلبها برغم

كل ما يُقال عن الأمم، ورضيت حتى بالفتات الساقط من موائد أربابها. صرح الرب لها قائلاً: "**يَا امْرَأَةُ، عَظِيمٌ إِيمَانُكِ**" (مت ١٥ : ٢٨).

يا سيدي يا عارف القلوب ووازن الإيمان.. ماذا يُقال عن التي آمنت أن يتم ما قيل لها من قِبَل الرب رغم أن ما قيل فوق التصور والخيال.. أن تحبل العذراء وتلد دون أن يمسها بشر؟؟ لقد فاقت إيمان إبراهيم والأولين، ووثقت بالرب بيقين لم يعرفه قلب إنسان ولم يرتفع إيمان أحد من البشر إلى هذه القمم العالية سواها.

فكيف يمدح المسيح إيمانها!!

فإن كان مدح إيمان المرأة الكنعانية، فكم وكم يكون نظره إلى إيمان الأم العذراء.. أمه الخاصة؟!

تجسّد من الروح القدس ومن مريم العذراء

لقد اتخذ له جسداً من جسمها الطاهر بسر لا يُدرَك كماله ولا يصل إليه فكر الملائكة مهما سما. لأنه كما علت السماء

عن الأرض علت أفكار الله عن أفكار الناس وطرقه عن طرقهم. فإن معرفة الناس والملائكة لله بكل أبعاد المعرفة المُفاضة من الله على كُلٍّ من الملائكة والبشر، لكن تنفرد العذراء القديسة بمعرفة خاصة قاصرة عليها فريدة في نوعها.. فهى قد عرفته كإله متجسد في أحشائها ومن جسمها. وهذه المعرفة لم يحظ بها ملاك ولا رئيس ملائكة ولا نبي ولا كائن مَنْ كان.

وهى ليست معرفة مبنية على عقل أو مُعطيات الإيمان أو خبرات السابقين ولا مستمدة من مهارة أو تدريبات.. ولكن مُفاضة من الله بحسب عمل الخلاص الذي كان في فكر القدير و"**لَمَّا جَاءَ مِلْءُ الزَّمَانِ، أَرْسَلَ اللَّهُ ابنهُ مَولُوداً مِنِ امْرَأَةٍ** (منها)" (غل ٤ : ٤).

فبأي لغة أو لسان يمكن أن توصف هذه المعرفة؟! وهو جنين في بطنها سكن تسعة أشهر بالكمال، صائراً في البطن وهو الكائن في حضن الآب كل حين، وهو الواحد مع الآب في الجوهر وهو الذي لا يخلو منه مكان ولا يحده زمان.

لقد كانت تعبد بجدة الروح لا بعتق الحرف. وإذ كانت ممتلئة من النعمة بحسب حلول روح الله القدوس عليها وقوة العلي

ظللتها، فالروح الساكن فيها قادها إلى أعماق الحياة والأسرار الإلهية، لا لإدراك العقل، فالتجسد سر فائق للإدراك والعلم والمعرفة والحكمة العالمية.

والعذراء القديسة لم تنل شيئاً من معرفة العالم، ولا عرفت ما في العالم.. ولكن قلبها النقي وطهرها الصافي جعل الآب يطَّلِع عليها كخالقها، وهى التي أسلمت ذاتها وقلبها الطفولي البريء بكليته للرب، فرضى أن يسكن فيها.

ما أعمق أسرار حبها لجنينها الإلهي.. وما أعمق أسرار صلاتها وحنينها نحوه.. مَنْ يستطيع أن يفهم أو يدرك؟ ولما ولدته كيف كانت تنظر إليه وهو أبرع جمالاً من بني البشر.. ولما أرضعته من ثديها الطاهر كان ينمو كصغير قليلاً قليلاً من جسمها أيضاً.

فلم يتوقف دور الأم العذراء عند ولادته كإله استخدمها الرب بغرض الولادة.. حاشا.. فهى اعتنت به كصغير وربّته على ركبتيها بتدليل لا يُنطَق به. وحملته على ذراعيها كمركبة الشاروبيم التي رآها حزقيال. بل بحسب التدبير كتب ما هو مكتوب عنه: "**وَكَانَ خَاضِعاً لَهُمَا**" (لو٢: ٥١). فهو صورة الآب غير المنظور وفيه كل الكمال الذي لا يشوبه كدر لأنه لم يعرف خطية ولا يقترب إليه الشر.

ففي طفولته كان نامياً في النعمة في نظر الناس، وبالأكثر كثيراً في نظر من عرفته إلهاً متجسداً قبل أن يعرفه المؤمنون به.

طوباكِ أنتِ أيتها السماء الثانية التي قدسها الرب بسُكناه.. وهل بعد أن سكن فيها الإله كسماء.. هل تعود لتشابه الأرض أو الأرضيين.

لقد صارت سماء وكرسياً للإله وعرشاً للمجد ومدينة الملك العظيم.. وظلت هكذا إلى مجيء الرب وإلى أبد الآبدين لأن الرب لما مجَّد قديسيه مجدهم بمجد أبدي لا يعرف الرجوع إلى خلف.. فليس عند إلهنا "**تَغييرٌ وَلاَ ظِلُّ دَوَرَانٍ**" (يع ١ : ١٧).

مجد العذراء ورفعتها ومركزها لدى المسيح لا ولن يتغير لا بالزمن ولا ما بعد الزمن.

???

العذراء الشفيعة

مُعينة.. رحيمة.. كثيرة هى شفاعتها قوية ومقبولة لدى مُخلِصنا.. أليست هى الأم؟!

كيف تتوسل الأم من أجل أولادها؟ وهى ملجأ قائم لا سيَّما للخطاة. فالطفل يحتمي في أمه لأنها صدر الحنان وهى الطمأنينة والأمان في زمان الشدة.. وهى صاحبة المشورة الحسنة مثل قولها للخدام في عُرس قانا الجليل "**مَهْمَا قَالَ لَكُمْ فَافْعَلُوهُ**" (يو ٢ : ٥).

هى تدلنا إلى طاعة ابنها لأنها وحدها تعلم تدبيره الإلهي وقدرته السرمدية.. ومغبوط من يسمع نصيحة الأم الطاهرة.

طوبى لخدام عرس قانا الجليل البسطاء الذين أصغوا لكلامها وخضعوا لقول يسوع دون أن يعرفوه، فقادتهم طاعتهم إلى أن يصيروا أداة صُنع المعجزة.

قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: امْلأُوا الأَجْرَانَ إِلَى فَوْقُ.. فأطاعوا.

وقَالَ لَهُمُ: اسْتَقُوا من الْخَمْرَ.. فاسْتَقُوا.

وقَالَ لَهُمُ: قَدِّمُوا إِلَى رَئِيسِ الْمُتَّكَإِ.. فَقَدَّمُوا.

هذه هى الطاعة المطلوبة والمطوَّبة من الرب والقادرة على استيعاب أعمال الله المعجزية.

مَنْ هِيَ أُمِّي ، وَمَنْ هُمْ إِخْوَتِي؟

يقول الإنجيلي: إن الرب بينما كان يعلِّم وكانت جموع كثيرة محيطة به، إن أمه وإخوته وقفوا خارجاً وأرسلوا من أعلم الرب أن أمك وإخوتك خارجاً بالباب وهم يطلبون أن يروك.

فقال الرب: "مَنْ هِيَ أُمِّي وَمَنْ هُمْ إِخْوَتِي؟ ثم نظر إلى الجالسين حوله وقال: "هَا أُمِّي وَإِخْوَتِي" لأن الذين يصنعون إرادة الله هم "أَخِي وَأُخْتِي وَأُمِّي".

لم يكن قول الرب فيه امتهان من كرامة أمه العذراء.. حاشا!! بل هو رفعة وكرامة للذين يسمعون كلامه ويصنعون إرادته. وواضح أن الرب كان يعلم وكانت الجموع حوله يسمعون تعاليمه المحيية.

فليس من التدبير أن ينهي تعليمه ويتوقف عن الكلام. وليس من المعقول أن يجحد الرب أمه أو ينكر بنوته لها ولا قرابته لإخوته. ولكن قد كشف الرب بقوله الإلهي عن دخولنا إلى قرابة الرب بالروح.. **"فمَنِ الْتَصَقَ بالرَّبِّ فَهُوَ رُوحٌ وَاحِدٌ"** (١كو ٦ : ١٧). لقد صار الرب بكراً بين إخوة كثيرين بتجسده من العذراء.

لما سمعت العذراء القديسة مريم أن أليصابات حُبلى وأنه الشهر السادس لتلك المدعوة عاقراً.. سمعت هذا ليس من الناس بل من رئيس الملائكة جبرائيل المُبشِّر. قامت بسرعة وهى مملوءة من الروح القدس يدفعها الحب ويلهبها البذل وخدمة الآخرين.. وتحمّلت وهى شابة صغيرة في أيام حملها الأولى، تحملت مشقة السفر في تلك الأيام من ناصرة الجليل إلى اليهودية. ولم يذكر الكتاب أن القديس يوسف النجار قد صاحبها في هذه الرحلة، ويغلب على التفكير إنها لم تستشر دماً ولحماً كما قيل بل اندفعت بقوة الروح محمولة على أجنحة الحفظ الإلهي إلى حيث قادها الروح.

دخلت بيت زكريا وسلّمت على أليصابات. وصار صوت سلام العذراء في أذني أليصابات كسقي المياه لأرض عطشى. قال الرب للرسل: **"إِنْ كَانَ هُنَاكَ ابْنُ السَّلاَمِ يَحُلُّ سَلاَمُكُمْ عَلَيْهِ"** (لو ١٠: ٦)، حقاً كان الباران زكريا وأليصابات أهلاً ليس لحلول السلام فقط بل ولحلول رب السلام ووالدة رب الأنام.

ارتكض العبد في بطن العاقر للقاء سيده قادماً إليه ولسان حاله ينطق كما نطقت أمه "من أين لي هذا أن يأتي ربي إليَّ؟"

ومدّ الرب يده من وراء الجوف وعمّد عبده يوحنا واستأمنه

على المعمودية ومناداة التوبة وملأه وهو في بطن أمه من الروح القدس.

وحين حلت العذراء حاملة الإله في البيت امتلأ من رائحة الطيب، طيب الروح القدس فامتلأ الجميع من الروح: زكريا وأليصابات والجنين في بطنها. فسبَّحت أليصابات وطوَّبت العذراء كباكورة المُسبحين بأحلى نغمات التطويب.

وماذا عن زكريا الكاهن، هذا الذي شهد الروح ببره وصار أهلاً لبشارة رئيس الملائكة وصار أباً لأعظم مواليد النساء؟! تُرى كيف استقبل العذراء وهو عارف الكتب والأنبياء ومُترجّي الخلاص؟! العذراء ربيبة الهيكل وهو يعرفها جيد المعرفة. وسلمت عليه كعادة العذارى في الهيكل حين يلتقون بشيوخ الكهنة الموقرين. انحنت على يده تُقبّلها وأحنت رأسها. وهو كعادة الكهنة وضع يده على رأسها يُبارِك عليها!!

الحمامة الوديعة الحسنة حاملة في بطنها ينبوع الوداعة ورب الإخلاء سلكت بروح ابنها الذي أخذ "**صُورَةَ عَبْدٍ ... وَوَضَعَ نَفْسَهُ...**" (في ٢ : ٧ - ٨).

ألم يفعل يسوع هذا بعد السنين؟ ألم يحنِ رأسه أمام يوحنا

الكاهن ابن الكاهن وهو يمتنع ويعتذر؟ ولكن يسوع الذي جاء ليبرر الفجار قال له: "**اسْمَحِ الآنَ**" (مت ٣ : ١٥).

إنه منهج إلهي عجيب لا يدركه إلا من سلك في أثر خطوات يسوع.

كان في التدبير أن زكريا الكاهن يصمت لسانه عن الكلام. فما دار حوله من أسرار التجسد وحلول الكلمة شيء ينعقد له لسان الحكماء والفهماء... صمت لسانه وانعقد عن الكلام فلم يَعُد يستطيع أن يكهن كرتبته في هيكل سليمان ولزم بيته بعد أن أكمل أيام خدمته.

فلما قرعت العذراء بابه انفتح أمامه باب السماء. وعوضاً عن الهيكل ذو المباني العالية والأسوار وما في داخله من مذبح البخور ومائدة خبز التقدمة وحتى قدس الأقداس الذي كان لا يقترب إليه أحد ولا يدخله إلا رئيس الكهنة مرة في كل سنة وما يتبع الهيكل من مواسم وأعياد وشهور وأهِلَّة وطقوس هذا عددها. وجد نفسه قائماً أمام من صارت هيكلاً للروح القدس وكأنه فُتح أمامه باب هيكل الشهادة ليشاهد ويشهد أنه تراءى أمام رئيس الكهنة الأعظم وهو بعد في الحشا، وعوض عن ذبائح الصباح والمساء وجد ذاته وجهاً لوجه مع حمل الله الحامل خطية العالم كله. وعوض مذبح البخور الذي يُحرَق عليه البخور صباحاً

ومساءً وجد بيته قد تعطّر برائحة كلية الطهر، مجمرة الذهب غير المادي التي في يد رئيس كهنة الخيرات العتيدة.

لقد دخل قبل الأوان واجتاز من شبه السماويات وظلها إلى السموات بعينها. لم يَعُد يحتاج إلى لسان وكلمات.

دخل قلبه إلى مقادس العلي فجأة وبلا مقدمات وتمتع بخيرات العهد الجديد وهو بعد في القديم. فكان كمن يسبق الزمن بالرؤيا أو من يحيا فجر الحياة الجديدة وقد بدأ الظلام يخبو.

فرح العذراء مريم

فرح الأم أن ترى أولادها ناجحين والعكس صحيح فالابن الجاهل أي غير الحكيم هو حزن أمه كما يقول سفر الأمثال: **"اَلابْنُ الْحكِيمُ يَسُرُّ أَبَاهُ، وَالابْنُ الْجَاهِلُ حُزْنُ أُمِّهِ"** (أم ١٠ : ١).

فالأم أي أم يتهلل قلبها فرحاً حينما يبلغ ابنها إلى قمة من قمم العالم المادية أو يصيب نجاحاً من أي نوع.. فهى ترى في نجاح ابنها تحقيقاً لدورها في الذي ولدته. فإن كان هكذا في العالم فإن العذراء القديسة التي هى أمنا بالحقيقة إذ صرنا أعضاء في جسد ابنها.. وصار هو بكراً بين إخوة كثيرين فإن بلغ أحد أبنائها مبلغاً من الرفعة الروحية أو قداسة السيرة وأرضى الرب بالفعل والقول أو حاز على إنعام من إنعامات السماء أو استؤمن على مواهب القدير.. فإن فرح العذراء يكون فائقاً بلا حدود.

بل إذا سار أحدنا سيراً حميداً في حياة التوبة والرجوع إلى الله فإن السماء يكون فيها فرح وعلى رأس السمائيين يكون فرح الأم برجوع ابنها الذي كان في عداد المفقودين كقول الرب **"يَنبَغِي أَنْ نفْرَحَ وَنسَرَّ، لأَنَّ أَخَاكَ (ابني) هذا كان مَيِّتاً فَعاشَ، وكان ضَالاً فَوُجِدَ"** (لو ١٥ : ٣٢).

قال القديس يوحنا الإنجيلي في رسالته **"لَيْسَ لِي فَرَحٌ أَعْظَمُ مِنْ هذَا: أَنْ أَسْمَعَ عَنْ أَوْلاَدِي أَنَّهُمْ يَسْلُكُونَ بِالْحَقِّ"**

(٣يو ١ : ٤).

أعرِفت إذن كيف تُفرِح قلب العذراء الأم؟ إنه بالسلوك بالحق.. والحياة في الحق أي في المسيح.

السلوك بالروح يُرضي قلب الله ويُفِّرح القديسين ولا سيَّما القديسة الطاهرة إذ أن عاطفة الأمومة تكون نحونا كمثل نار متقدة. لذلك فهى شفيعتنا في السماء وهى تشجع وتساعد وتسند السائرين في الطريق بصلاتها وشفاعتها المقبولة لدى مُخلِّصنا.

قيل عن أبطال الإيمان "**أَخَذَتْ نِسَاءٌ أَمْوَاتَهُنَّ بِقِيَامَةٍ**" (عب ١١ : ٣٥). فبطلات الإيمان قد تعظّم فعل الثقة فيهن فحتى بعد ما مات أولادهن أقامهم الرب لهن، كمثل أرملة صرفة صيدا في أيام إيليا والمرأة الشونمية في أيام أليشع. فكم تكون العذراء الأم التي فاقت نساء العالمين في إيمانها "**طُوبَى لِلَّتِي آمَنَتْ أَنْ يَتِمَّ مَا قِيلَ لَهَا مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ**" (لو ١ : ٤٥). كيف أنها تستعيد أولادها من موت الخطية إلى حياة البر بثقتها في المسيح مُخلِّص الخطاة وواهب الحياة.

نحن نطلب معونتها في حروبنا ضد قوات الشر وهى أم مُعينة رحيمة تعرف قدر ضعف طبيعتنا وشراسة العدو الشرير. ونطلب إليها "أسبلي ظلك السريع المعونة على عبدك وابعدي

عنـي أمـواج الأفكـار الرديـة وانهضـي نفسـي المريضـة للصـلاة والسهر".

ونطلـب أيضـاً ونقـول: "ابطلـي مشـورة المعانـدين لنـا وحـزن عبيـدك رُدّيـه إلـى فـرح. وحصِّـني مـديتنا، وعـن سـلام العـالم والكنائس اشفعي".

ونطلـب أيضـاً: خلِّصـي الـذين التجـأوا إليـكِ بإيمـان مـن الشدائد.

ونثق بـالرب أنهـا لا تَكُفّ عـن الشفاعة مـن أجلنـا ونثق أن الرب لا يرد طلبتها.

إن العبد الذي وُجِدَ أميناً في الأرض أقامه الرب على عشر مدن، وهو في السماء يشفع في عشر مدن بسبب حبه للرب وأمانته فيه. أما العبدة والأم العذراء فقد أقامها الرب شفيعة عن العالم كله إلى جيل الأجيال، ونصيبنا فيها صالح إذ نجد فيها دالة ونحتمي فيها في أزمنة الضيق.

إن أمنا متطلعة علينا من المساكن العلوية تنظر إلينا تنتظر كمال خلاصنا وختام جهادنا.

تشـدنا إلـى النظـر إلـى السـماويات وتُشـجِّع الصـغار لـئلا يفشلوا. كمثل الأم التي تنتظر صغارها حتى يعودوا إليها وهى في شرفة منزلها عيناها ترقبان عودتهم إلى أحضانها.

لا تستريح نفوسنا من عناء سعينا اليومي إلى أن نجد حضن العذراء ملجأ لنا في كل ليلة. وعطر ورائحة قداستها يملأ قلوبنا بحسب حياة القداسة وتكريس الحياة لخدمة يسوع المسيح ربنا.

افرحي يا مريم

افرحي يا مريم العبدة والأم لأن الذي في حجرك الملائكة تسبحه. والشاروبيم يسجدون له باستحقاق والسرافيم بغير فتور.

قال لها الملاك: "**قُـوَّةُ الْعَلِـيِّ تُظَلِّلُكِ**" (لو ١ : ٣٥). فالكاروبيْن المظللين على تابوت العهد في قبة الشهادة بحسب الرمز القديم صاروا بالحقيقة يسبحون خالقهم في بطن العذراء التي هى تابوت العهد الجديد.

ولما كان تسبيح الشاروبيم والسرافيم بغير سكوت ولا فتور فإنه يكون من المسلم به أنهم كانوا يظللون على العذراء بالأجنحة الستة والعيون التي بلا عدد وهم ملتهبون بالنار الغير مادية.. يسبحون تسبيحاً غير منقطع بلا توقف صارخين بحسب خوارسهم الملائكية قائلين: "قدوس قدوس قدوس رب الجنود مجده ملء كل الأرض."

فإن كان الرب بحسب تدبيره في إخلاء ذاته أخذ شكل العبد وارتضى به ووُجِدَ في الهيئة كإنسان عادي. ولكن المنظر الذي لا يُرى هو أنه الكائن الأزلي الأبدي الذي لا بداية أيام له ولا نهاية حياة وإن الملائكة ورؤساء الملائكة يقدمون له الخدمة ويصنعون إرادته عند سماع صوت كلامه.

فهل كان يُخفى على العذراء هذا الواقع؟!

فإن كانت البشرية رأت في المسيح المتجسد إنساناً مجرداً بحسب الظاهر فإن العذراء التي اختارها وكشف سر تجسده لها

واتخذ ناسوته منها ما كان يغيب عن بصيرتها هذا الواقع الإلهي أن المولـود منهـا قـدوس مسـبَّح مـن الملائكـة، ومما لا شك فيه إنها اشتركت مع الشاروبيم في تسبيحه في مدة حملها وسجدت له معهم لما ولدته.

فهو كطفل صغير في حجرها وهى عبدة وأم وملكة في آن واحد. وهم يمجدونه بتسبيح وصوت لا يُنطَق به وهى ناظرة بروحها ووجدانها النقي وحواسها الحكيمة إلى ما هو كائن، ما يعجز العقل أن يلاحقه.

كم غبَّطتها الملائكة وطوّبتها قبل تطويب البشر لها.

فأول من مدحها وأعطاها السلام وحيّاها كأم القدوس هو رئيس الملائكة جبرائيل وهو الذي حمل إليها البُشرى. ولم يقل الإنجيل إنها اضطربت من رؤية الملاك بل من عبارات المديح العالي الذي أظهر قمة تواضعها ووداعة نفسها.

إذن فقد مجَّدتها السماء قبل الأرض.. ومدحتها الملائكة قبل البشر.

طوبتها أليصابات أم القديس يوحنا المعمدان كباكورة للنساء

التي طوبنها. وأيضاً المرأة التي رفعت صوتها بين الجمع وعلى غير عادة الشرقيين في زمانها وقالت للرب: "**طُوبَى لِلْبَطْنِ الَّذِي حَمَلَكَ وَالثَّدْيَيْنِ اللَّذَيْنِ رَضِعْتَهُمَا**" (لو ١١ : ٢٧). سجلها الروح القدس في الإنجيل وقد رد عليها المسيح أن التطويب الأعظم ينصب على الذين يسمعون كلام الله ويحفظونه والقديسة العذراء أم الرب هى أم الكمال في حفظ وصايا ابنها وإلهها.

إن المتأمل في حياة العذراء يجد إن عشرتها مع الملائكة لم تنقطع منذ طفولتها حين أكلت طعام الملائكة كطفلة بريئة.. حياتها في الهيكل والهيكل هو حياتها إلى أن بشرها رئيس الملائكة وصار الشاروبيم يظللون عليها إلى مدى حياتها.

أليست هى السماء الثانية مسكن الملائكة وموضع تسبيحهم!!

العذراء في الهيكل

أكملت العذراء أربعين يوماً بعد ولادة ابنها الكلمة المتجسد وهى كلية الطهر ودائمة البتولية. حملت رضيعها وذهبت هى ويوسف البار إلى هيكل الرب.. لماذا؟! لتكميل الناموس وتقديم ذبيحة عن تطهيرها كما أمر موسى في الناموس.

كانت العذراء قد فارقت الهيكل منذ بضع سنوات إذ أخذها

يوسف البار إلى خاصته. فلما عادت وهى حاملة وليدها الإلهي.. كان الكل يعرفها كفتاة الهيكل اليتيمة والآن وقد صار لها طفل وهى قادمة لتقدم الذبيحة بعد أربعين يوماً.. فإن أقرانها والقائمين على الأمر في مساكن العذارى والأرامل أحاطوا بها كعادة الناس مهنئين فرحين معها.

ولكن أصحاب البصيرة من العباد هم من أدركوا السر الإلهي مثل: سمعان الشيخ، وحنة النبية بنت فنوئيل أرملة الأصوام والعبادة ليل نهار. هذه التي كانت تترجى الخلاص وتنتظر المسيا ولم تكن وحدها بل باركت الله ومجدت العذراء مع كل من كان ينتظر الخلاص ويحيا الرجاء فأنار الروح قلوبهم وأدركوا زمن المسيا وعاينوا مجده وهو بعد محمول على ذراع أمه.

لقد تجسد السيد لكي يكمل الناموس لا لينقض الناموس. فقد أُختُتِنَ في اليوم الثامن وأخذ اسمه "يسوع" مع شهادة الختان إذ صار ابن الإنسان محسوباً في تعداد العالم ومحسوباً واحداً من شعب الله في آن واحد.

على أي الأحوال ذهبت العذراء ربيبة الهيكل إلى الهيكل لتقدم زوج حمام أو فرخي يمام وهى أرخص ذبيحة يقدمها فقراء الشعب وإن تعذَّر أن يشتري الفقراء زوج حمام فإن الهيكل يقدم

لهما فرخي يمام مجاناً ليقدما الذبيحة كواجب لا مفر منه.

كانت العذراء تحمل على منكبيها الذبيحة الحقيقية - حمل الله - الذي بعد الزمن قدم ذاته مرة واحدة فيها كفاية لغفران خطايا العالم لأن الدم الذي سُفِكَ على الصليب بروح أزلي قادر على مسح خطايا العالم.

وفيما كانت العذراء في الهيكل أقبل سمعان الشيخ مسوقاً من الروح القدس "**وَكَانَ قَدْ أُوحِيَ إِلَيْهِ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ أَنهُ لاَ يرى الموتَ قَبلَ أَنْ يَرَى مَسِيحَ الرَّبِّ**" (لو ٢ : ٢٦). فقد وُهب من الله أن يرى الحياة قبل أن يعاين الموت. فحمل المسيح على ذراعيه وتلامس مع الحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأُظهِرَتْ لنا. احتضن الحياة الأبدية فاستهان بموت الجسد بل طلبه من الرب لينطلق بسلام. ثم التفت إلى العذراء بالبصيرة التي نالها والعين الشاخصة إلى الرب وقال عن الرب: إنه "**وُضِعَ لِسُقُوطِ وَقِيَامِ كَثِيرِين... وَلِعَلاَمَةٍ تُقَاوَمُ**" (لو ٢ : ٣٤).

من الملامح الرئيسية في النبوات عن المسيا إنه يفتح أعين العميان. لذلك صار سمعان الشيخ هو باكورة من فتح الرب عينيه.. لما حمل المسيح انفتحت عيناه وأول ما رأى.. رأى الصليب، العلامة المجيدة. لقد أدرك ما لم يدركه أحد وسبق

الزمن بالنبوة. لقد شاهد علامة المسيح أي صليبه المزمع أن يكون ولم يكن للرب في الجسد سوى أربعين يوماً!!

حمل سمعان الكاهن على ذراعيه رئيس الكهنة الأعظم والذبيحة معاً، ورأى انقسام العالم ما بين قابل للمسيح ومؤمن بالخلاص وما بين رافض مشورة الله وجاحد ومعاند. والعذراء الحمامة الوديعة المطلعة على أسرار الله والمؤتمنة على سر تجسده المجيد وقفت صامتة لا تتكلم متأملة كيف أن الروح يقود المسيرة كلها منذ اللحظات الأولى.. وها التدابير الإلهية تتكشف يوماً فيوم وخطة الله للخلاص تُعلَن للأبرار وللمترجين والمنتظرين فداء إسرائيل.

ولم يكتفِ سمعان بما قال عن السيد الرب طفل الأربعين يوماً بل نظر إلى يوسف ومريم وباركهما. ثم خصّ العذراء بالكلام لأن يوسف البار لم يكن صاحب دور جوهري في السر الإلهي بل كان كحارس اختصّه الرب بهذه النعمة أن يكون أقرب إلى العذراء وكأب للطفل بحسب الشكل. فوجَّه سمعان الشيخ كلامه من الأول للعذراء ولم يخاطب يوسف بشيء وقال للعذراء: "وَأَنْتِ أَيْضاً يَجُوزُ فِي نَفْسِكِ (قلبك) سَيْفٌ".

بالحق قد حملت العذراء مَن حمل الصليب منذ دخوله إلى العالم. فإن كان صلب المسيح وموته المُحيي هو هدف تجسده

لرفع الموت وإظهار القيامة والحياة فقد شاركت العذراء من اللحظات الأولى بطريقة سرائرية عميقة تفوق الفهم والإدراك في حمل الصليب داخلها عبر السنين إلى أن وقفت عند صليب ابنها وهى تتابع تفاصيل الآلام التي قبلها عنا كلنا.

ونحن نعلم من الكتب "**إِنْ كُنَّا نَتَأَلَّمُ مَعَهُ لِكَي نَتَمَجَّدَ أَيْضاً مَعَهُ**" (رو٨ : ١٧). وأن الحزن يتحول إلى فرح والموت يُبتلع من القيامة. والذين يتألمون بحسب مشيئة الله يستودعون أنفسهم للخالق الأمين في عمل الخير فهو الذي طوَّب الحزانى والمتألمين والمطرودين من أجل البر. وعلى قدر ما احتمل القديسون والشهداء من الآلام من أجل الرب على قدر ما ضاعف لهم الرب المجد الباقي إلى الأبد.

وإن كان السيف بلغ إلى رقاب الشهداء فحُسبوا مستأهلين أن تكون نفوسهم في قدس أقداس السماء تحت المذبح. فإن السيف سبق فجاز في قلب العذراء القديسة مريم من الأيام الأولى. وإن كان السيف المادي يقطع الجسد فكم يكون السيف الذي جاز في القلب. فهى وإن كانت شريكة في نظر الآلام وأوجاع مسامير الصليب.. فقد انفردت بأحاسيس الأم التي لم يشاركها فيها أحد من البشر.

فالذي عُلِقَ على الصليب هو ابنها الحبيب الوحيد. فآلامه

الخلاصية قبلها العالم بفرح الفداء والتكفير عن الخطايا وقد أخذت العذراء نصيبها من الخلاص.

ولكن ما يُستعصى على الفكر ما جاز في قلبها من آلام لا يُعبَّر عنها وهى تتبعه وتراه وهو "**كَشَاةٍ تُسَاقُ إِلَى الذَّبْحِ، وَكَنَعْجَةٍ صَامِتَةٍ أَمَامَ جَازِّيهَا فَلَمْ يَفْتَحْ فَاهُ**" (إش ٥٣ : ٧). وهكذا نتوقع أنها في كل هذه لم تفتح فاها ولم تنطق بل احتفظت بطابعها الوديع متفكرة في قلبها وإن اعتصرتها الآلام فمَنْ مِنَ البشر يستطيع أن يفهم أسرارها حتى لو تكلمت؟!

على قدر هذه الآلام تمجّدت أم الله وارتفعت أعلى من السموات، ومجدها مَنْ يقدر أن يصفه!!

إنها "**مُتَسَرْبِلَةٌ بِالشَّمْسِ، وَالْقَمَرُ تَحْتَ رِجْلَيْهَا**" (رؤ ١٢ : ١). هكذا رآها يوحنا حبيب المسيح وحبيبها.

روائح طيب العذراء

لأنكم "رَائِحَـةُ الْمَسِـيـحِ الذكِيَّـةِ لِلَّـهِ، فِـي الَّذِيـنَ يَخْلُصُـونَ وَفِي الَّذِينَ يَهْلِكُونَ" (٢كو ٢ : ١٥).

هكذا قيل عن المؤمنين بالمسيح الذين قبلوه الذي أنعم عليهم بنعمة البنوة وتجديد الروح لأننا اتحدنا معه بشبه موته عندما دفننا معه في المعمودية للموت وأقامنا معه. وقد أطعمنا خبز السماء - جسده الطاهر - لكي يأكله الإنسان ولا يموت. فإن رائحة المسيح الذكية تنتشر في العالم بواسطة من أرسلهم إلى العالم من الرسل والشهداء والقديسين والأبرار في كل جيل الذين يحفظون وصاياه.. هؤلاء يُعطِّرون العالم بعِطر المسيح الفائق. وبدونهم يصعد زُهم العالم ونتانة رائحة الموت.. موت الخطايا والنجاسات.

لذلك كما أن المؤمنين بيسوع هم ملح حفظ العالم، هم أيضاً رائحة المسيح التي يشتمّها الناس فيمجدوا الآب السماوي الذي أنعم على البشر برائحة المسيح.

ونحن نقرأ في سفر التكوين عن إسحق أبينا في شيخوخته وقد كف نظره حينما تقدم يعقوب بمكر ليأخذ بركته عوضاً عن عيسو أخيه إذ قال إسحق: **"تقَدَّمْ وَقَبِّلْنِي يَا ابْنِي. فَتَقَدَّمَ وَقَبَّلَهُ، فَشَمَّ رَائِحَةَ ثِيَابِهِ (ثياب عيسو) وباركَهُ، وَقَالَ انظُرْ رَائِحَةُ ابْنِي كَرَائِحَةِ حَقْل قَدْ بَارَكَهُ الرَّبُّ"** (تك ٢٧ : ٢٧). فالثياب تحمل رائحة أصحابها.

"لأنَّ كُلَّكُمُ الَّذِينَ اعْتَمَدْتُمْ بالْمَسِيحِ قَدْ لَبِسْتُمُ الْمَسِيحَ"

(غل ٣ : ٢٧). فرائحة المسيح تُغطي على رائحة طبيعتنا القديمة لأننا في المسيح صرنا طبيعة جديدة. فإن قيل هذا عن المؤمنين.. فكم بالأولى كثيراً تكون العذراء القديسة والدة الإله الذي تجسد منها الابن الكلمة.

هى بالحقيقة رائحة المسيح وعطر المسيح الصافي بلا نقصان. فإن اشتم أحد رائحة المسيح في حياة أحد القديسين أو الشهداء أو الأبرار فهذا صدق ولكن ليس للكمال فإنه لم تخلَ حياة هؤلاء من ضعفات البشر ونقص الطبيعة القديمة والهفوات والزلات والسقطات فليس مولود امرأة يتزكّى أمام الله ولو كانت حياته يوماً واحداً. أما العذراء القديسة فقد قدّسها وطهّرها وملأها نعمة وهى مصفّحة بالذهب الخالص بلا شوائب.

فإن حصل أعلى القديسين على نعمة فإن العذراء وحدها هى الممتلئة نعمة بفم رئيس الملائكة. وإن تحصَّل أحد على رائحة المسيح في السلوك والطهارة والتصرُّف باتضاع المسيح أو حلمه أو وداعته أو حبه الحاني، فإن العذراء القديسة هى وحدها الحاصلة على الكمال الكلي من جهة البشرية لأن الذي أخذ جسده منها هو الكامل وحده وغير الممسوك بالموت أو الخطايا. وإن كان روح الله حلّ على الرسل في يوم الخمسين مثل ألسنة نار منقسمة على كل واحد وهكذا صاروا مسكناً

للروح القدس وقد أعطوا الروح لكل من قَبِلَ منهم. فالعذراء القديسة قد سمعت من فم رئيس الملائكة أن الروح القدس يحلّ عليكِ وقوة العلي تُظللكِ.. فقد تجسّد الرب من الروح القدس ومن مريم العذراء.

لذلك حملت العذراء للعالم رائحة المسيح الخالصة بلا كدر الطبيعة. لذلك هى تبتهج بالله مُخلِّصها لأنها لم تنسب لذاتها شيئاً بل تعترف بفضل ذاك الذي اختارها ورفعها أعلى من السموات.

هى رائحة القداسة ورمز البتولية لأنها دائمة البتولية..

هى رائحة الوداعة وتواضع القلب..

هى رائحة الصبر والاحتمال حتى الصليب..

هى رائحة الحب الطاهر العذري الذي لا يشوبه دنس الجسد وهياج الشهوات..

هى رائحة المسيح وحسب..

قلب العذراء

لقد أحست العذراء بالرب الساكن فيها يتحرك في أحشائها كجنين في أيام تجسده الأولى فأدركت حبه الحاني للبشرية وعنايته الفائقة وقصده الإلهي نحونا.. ورأت بأعماق قلبها

وأحشائها تحننات وأحشاء رأفات الرب نحو خليقته عندما شاركنا في اللحم والدم.

هذا الإدراك الداخلي العميق كان في العذراء قبل أن تراه عيناها مولوداً من عذراء، مولوداً في الجسد، مولوداً تحت الناموس. وهو السر الأعظم الذي لا يُدرَك كماله.

إن النساء العاميات لهن مقولة حقيقية، يقلن عن أولادهن: "إن القلب رآهم قبل العين". فالمرأة تحب جنينها وتشعر به قبل أن تراه بعينيها. هكذا يلزمنا هذا الفكر أن نفتكر في العذراء القديسة ونتأمل في سمو أحاسيسها التي ربطتها بالرب وهى تحمله في داخلها كجنين.

مباركة ومطوّبة أنتِ يا أم المسيح، ومباركة هى ثمرة بطنك كقول أليصابات القديسة. ونحن يحلو لنا أن نقول عن رب الأرباب وملك الملوك إنه ثمرة بطنكِ.

قيل في المزمور إن "**الْبَنُونَ مِيرَاثٌ مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ، ثَمَرَةُ الْبَطْنِ أُجْرَةٌ**" (مز ١٢٧ : ٣). وأيضاً قيل في القديم لحواء "**تَكْثِيراً أُكَثِّرُ أَتْعَابَ حَبَلِكِ، بِالْوَجَعِ تَلِدِينَ أَوْلاداً**" (تك ٣ : ١٦). فقد جاءت ساعة العتق من شوكة الخطية والموت الذي اجتاز إلى جميع الناس. وجاء الوقت أن تتحول العقوبة خلاصاً لما وُلِدَ

البِكر من البِكر البتول بغير خطية ولا زرع الخطية فأنهى على أوجاع العقاب وعقاب الموت.

ها أن **"الْحَيَاةَ أُظهِرَتْ"** (١يو ١ : ٢). **"فأينَ شَوكَتُكِ يَا هاوية؟"** (هوشع ١٣ : ١٤). إن **"اَلمَرْأَةُ وَهِي تَلِدُ تَحْزَنُ لأنَّ سَاعَتَهَا قَدْ جَاءَتْ، وَلكِنْ مَتَى وَلَدَتِ الطِّفْلَ لاَ تَعُودُ تَذْكُرُ الشِّدَّةَ لِسَبَب الفَرَحِ، لأنَّهُ قَدْ وُلِدَ إِنسَانٌ فِي الْعَالَمِ"** (يو١٦ : ٢١). كقول الرب.

أما العذراء القديسة فهى قد فرَّحت العالم كله بمولودها المبارك الذي حمل أحزاننا وبدد أوجاعنا وصار سبب خلاص لكل من يقبَله فينال بِاسمه حياة أبدية.

التسليم المُطلق

واحدة هى حمامتي كاملتي... لقد اتسم سلوك القديسة الطاهرة بالكمال في كل شيء. فمنذ أن أحنت رأسها لقبول السر الإلهي وحلول الروح القدس وهى قد أسلمت نفسها وجسدها

وروحها لله بتسليم كامل طوعي ووعي عالي فقد ألقت رجاءها بالكامل على الرب.

فبعد أن سمعت من فم رئيس الملائكة أن القديسة أليصابات حُبلى في شيخوختها وهذا هو الشهر السادس للمدعوة عاقراً.. قامت العذراء بسرعة يحملها روح الحب وروح البذل وروح المشاركة.. وخدمت أليصابات نحو ثلاثة أشهر في بيتها.

ومن المؤكد أن هذه الصُحبة الفائقة والعِشرة الروحية التي جمعت زكريا الكاهن البار وأليصابات القديسة مع أم ربي.. قد حَوت من الأسرار شيئاً لا يُقترَب إليه. فزكريا الكاهن المشهود له من الروح القدس كان في صمته يُمارِس كهنوتاً سرياً داخلياً في سجود وشكر ملائكي يرفع ذبائح التسبيح بغير صوت بشري مُتخطياً الذبائح الدموية قبل الأوان.

إذ أنه ليس بعد ذلك بكثير قدّم المسيح نفسه كذبيحة واحدة إلهية ووجد فداءً أبدياً ودخل إلى الأقداس في السماء كرئيس الكهنة الأعظم الذي لم يمنعه الموت عن البقاء.

قال الإنجيلي أن العذراء أقامت عندها نحو ثلاثة أشهر ثم رجعت إلى بيتها أي الناصرة. وقال البعض أن العذراء اطمأنت

إلى كمال عمل الله مع أليصابات إذ قاربت أن تضع مولودها فتركتها قبل أن تلد إذ وجدت الأقارب والجيران يحيطون بها متوقعين الحدث السعيد.

ولأن العذراء الوديعة ربيبة الهيكل ترنو إلى الهدوء تركت المكان قبل أن يغشاه الزحام. وقال آخرون أن العذراء زيّنت الفرح بميلاد يوحنا المعمدان وشاهدت السابق الذي يُعِدّ طريق ابنها الملك المُخلِّص.

على أية حال رجعت العذراء إلى الناصرة في ذات الدرب الذي سلكته في الجبال مُحاطة ومُظلّلة بقوة العلي كما ظلّل الشاروبيم تابوت العهد في ذات الوقت.

وهذا المسلك العجيب الذي سلكته العذراء من جهة أنها خزانة أسرار الله تحفظ الأمور في قلبها العجيب ولا تبوح بأسرارها لكائنٍ مَنْ كان.

في ذلك الوقت كان يوسف البار هو الشخص الأقرب للعذراء القديسة.. فهو قد استلمها من الهيكل من يد الكهنة كأمانة ووديعة عنده كمخطوبة له إذ هو كما يسمونه سابقاً هو الولي.. أي المتولي أمرها والساهر على حفظها كعذراء.

عندما تراءى رئيس الملائكة جبرائيل للعذراء حاملاً البشارة

السماوية وأعلمها بكل أسرار التجسد الإلهي ونزول ابن الله إلى أحشائها وحلول الروح عليها.. وأعلمها بحبل أليصابات لم تُطلِع يوسف البار على شيء من ذلك.. حفظت الكل وانطوت على الأسرار العالية يهيم عقلها ويسبح في السمائيات ويزيدها ذلك اتضاعاً ورفعة.

فلم يكن يتسنّى لبشر في ذلك الوقت أن يستوعب أو يُدرِك ما يحدث أو ما يقال.. لذلك كفّت العذراء عن الحديث مع الناس حتى الأقربين.

ولما رجعت من عند أليصابات كانت العذراء في شهرها الرابع من حملها المقدس فكانت ملامح الحمل تبدو واضحة عليها وهذا ما لفت نظر يوسف البار وكما قيل بالروح أن الرجل كان باراً ولم يكن يريد بالعذراء شراً أن يُشهِّر بها أو يتهمها أو يذهب بها إلى الكهنة وشيوخ الشعب فيحكموا عليها بحسب الشريعة. لم يخطر على بال البار شيء من ذلك بل تفكّر في قلبه الطاهر وفكره البسيط النقي أن يدعها تذهب بهدوء إلى حال سبيلها.

وهذا السلوك الراقي والفكر العالي كان أيضاً غريباً عن عامة الناس في جيله لذلك استحق هذا البار ما ناله من قِبَلِ الرب لأنه مختار ومكرم من المسيح الإله.

وكـان السـلوك الطبيعـي أن العـذراء القديسـة تُبـرئ سـاحتها وتوضِّـح غموض حالتها بكلمات بسيطة للقديس يوسف تُطلِعه فيها بأمانـة ما جرى وكيف بشّرها الملاك.. ولكن على العكس تماماً احتفظت القديسة بسرها وتمسّكت بصمتها وأسلمت حياتها بالتمام لذاك الذي بيده أمرها.

قمة التسليم وقمة الإخلاء حتى الدفاع عن النفس عن حق رفضته تماماً.. فماذا كان الأمر؟! تولى الرب الأمر.. لما سكتت هى، تكلم الرب إلى يوسف. وعوض أخبار من الناس جاءته الأخبار من السماء.. من مصدِر الأمر إذ أرسل الرب إليه ملاكاً وأخبره في حلم ما هو كنه هذا السر العجيب.

وهكذا صارت العذراء فريدة في تصريفها للأمور.. فريدة في فكرها وفي سلوكها وفي مطلق تسليمها للحياة في يد الرب.
ألا يصح لنا أن نسألها أن تشفع فينا وتعطينا أن نتعلم ونكف عن تزكية أنفسنا والدفاع عن الذات.

اسم يسوع .. اسم الخلاص واسم المُخلِّص

أُستعلِن أولاً للقديسة العذراء من فم رئيس الملائكة وهى أول من نادى الرب به لقد صار في فم الرسل وبه أخرجوا شياطين وقالوا: **"يَارَبُّ، حَتَّى الشَّيَاطِينُ تَخْضَعُ لَنَا باسْمِكَ"**

(لـو ١٠ : ١٧). وكرزوا هكذا "**لَـيْسَ اسْـمٌ آخَـرُ تَحْـتَ السَّـمَاءِ، قَـدْ أُعطِيَ بَيْنَ النَّاسِ، بِهِ يَنبَغِي أنْ نخْلُصَ**" إلاَّ اسم يسوع (أع ٤ : ١٢).

وصار اسم يسوع في أفواه العباد والنساك هو محور الصلاة الدائمة وهو حلو في أفواه القديسين. وهو "**بُرْجٌ حَصِينٌ، يَركُضُ إِلَيْهِ الصِّدِّيقُ وَيَتَمَنَّعُ**" (أم ١٨ : ١٠).

ولكن كيف كانت الأم الطاهرة تناديه وتنطق بِاسمه المبارك. لا شك أن مناداتها للاسم - وإن شاركتنا في خيرات الخلاص - إلا أنها انفردت عن كل الخليقة بسبب ما لها من دالة الأمومة الحقيقية فهو ابنها وإلهها في آن واحد. كم كان اسمه حلواً في فمها فهى تناديه طفلاً "يا ابني" وهو يجاوبها كأم حقيقية لأن الرب ارتضى أن يتحد ببشريتنا اتحاداً كاملاً حقيقياً بلا مواربة ولا تمثيل ولا تشبيه. شاركنا في كل شيء وبارك طبيعتنا فيه.

وقيل أيضاً عن المسيح المبارك أن "**جَمِيعُ الَّذِينَ لَمَسُوهُ نَالُوا الشِّفَاءَ** (برئوا من أمراضهم)" (مت ١٤ : ٣٦). فالتلامس مع شخص يسوع فيه قوة الخلاص لأنهم "طَلَبُوا أَنْ يَلْمِسُوا ولو هُدْبَ ثَوْبِهِ". فإن كان الحال هكذا.. فماذا يُقال عن الأم العذراء التي حملته جنيناً في أحشائها تسعة أشهر كاملة. وربّته صغيراً وأرضعته من ثديها الطاهر. وحملته واحتضنته.. إنها أمور

يصعب التحدث عنها.

"اللَّـهَ الَّـذِي قَـالَ: أَنْ يُشرِقَ نُـورٌ مِـنْ ظُلْمَـةٍ، هُـوَ الَّـذِي أَشـرَقَ فِـي قُلوبنـا، لإِنـارَةِ مَعرِفَـةِ مَجـدِ اللَّـهِ فِـي وَجـهِ يَسُـوعَ المَسِـيحِ" (٢كو ٤ : ٦).

هذا هو الذي **"أَبْرَعُ جَمَالاً مِنْ بَنِي الْبَشرِ"** (مز ٤٥ : ٢). وهو الذي رآه يوحنا مع بطرس ويعقوب على جبل التجلي **"وأَضَاءَ وَجْهُهُ كَالشَّمْسِ"** (مت ١٧ : ٢). ثم رآه في رؤياه **"وَوَجْهُهُ كَالشَّمْسِ وَهِي تُضِيءُ فِي قُوَّتِهَا"** (رؤ ١ : ١٦).

تُرى مَنْ يستطيع أن ينظر إليه؟! أما العذراء القديسة فهى مشتملة بالشمس. فوجه يسوع ابنها هى أول من رآه لما ولدته. أشرق جسدياً من العذراء إذ هو **"شَمْسُ الْبرِّ وَالشِّفَاءُ فِي أَجْنِحَتِهَا"** (ملا ٤ : ٢). لقد ثملت عيناها الوديعتان من وجه القدوس حالما ولدته وارتسم نور وجهه عليها وأشبعته قُبلات كعروس النشيد.. لقد تجسّم من جسدها.. وحمل طبيعته البشرية كاملة منها. لقد قامت عبادات النساك يسترضون وجه يسوع وفوق الكل كانت العذراء.

جميع الذين نظروه خلصوا.. قال فيلبس لنثنائيل: **"تَعَالَ وَانْظُرْ"** (يو ١ : ٤٦). فلما رآه نطق بشهادة الإيمان.

بل إننا نتجرأ ونقول إن قسمات وجهه المبارك وملامح هيئته

التي اتخذها لنفسه من جسدها الطاهر ووحَّدها مع لاهوته هى في الواقع تشبه قسمات وجهها الملائكي بحسب القانون الطبيعي الذي استودعه الخالق في صميم الخِلقة. فالطفل هو وريث شكل والديه وحامل صفاتهما بالطبيعة.

عزاء ورجاء

في أزمنة الضيق الشديد وعندما يشتد الظلام يُشرق الرب بنوره ويُعزي الحزانى والمُجرَّبين. وقمة التعزية أظهرها الرب لأنبيائه في أيام ضيقهم.

استراحت رأس يعقوب أبو الأسباط وهو متعب ومطرود من

وجه أخيه عيسو الذي كان متمسكاً بقتله.. لما صادف مكان ليبيت فيه ووضع رأسه المتعب على حجر الزاوية صخر الدهور.. الصخرة هو المسيح.. وهو وبحسب التكوين.. صبَّ يعقوب زيتاً على رأس الحجر كأنه يمسح إنسان.. فصار الحجر ممسوحاً.. كمسيح الرب.

وحلم يعقوب الذي رآه.. سلم منصوبة رأسها في السماء وملائكة الله صاعدة ونازلة عليه والسيد الرب في أعلى السلم يتكلم مع يعقوب.. لقد طأطأ الرب السموات ونزل ووعد المُتعَب بالراحة والهارب بالسلام والذي كان في حكم المقتول وعده بالحياة والثمر.

أما السلم الذي نزل الرب عليه فهو العذراء القديسة، سُلَّم يعقوب كما تُلقّبها التسبحة.. فهو تجسد منها ونزل إلى أرضنا مُتحداً بطبيعتنا التي أخذها من جسدها الطاهر.

هنا دعوة صارت لكل رأس مُتعَب **"تعالَوا إِلَيَّ يَا جَمِيعَ المُتعَبينَ وَالثَّقِيلِي الأحْمَالِ، وأنا أُرِيحُكُمْ"** (مت ١١ : ٢٨).

وأيضاً من تُحيط به المخاوف والظلمات، يُصادِف المكان الذي سمّاه يعقوب **"مَا أرْهَبَ هذَا الْمكَانَ! مَا هذَا إِلاَّ بَيْتُ اللَّهِ، وَهذَا بَابُ السَّمَاءِ"** (تك ٢٨ : ١٧). فالمكان تعيّن أن يكون بيت الله - حيث صخر الدهور - حيث نلقي بأحمالنا عليه والأمر لم

يَعُد أحلاماً تُرى أو رموزاً وظلال بل حق كل الحق.

إن الكائن منذ الأزل إلى أرضنا نزل وأن "**فِي كُلِّ ضِيقِهِمْ تَضَايَقَ، وَمَلاَكُ حَضْرَتِهِ خَلَّصَهُمْ**" (إش ٦٣ : ٩).

وموسى رئيس الأنبياء بعد غُربة أربعين سنة في أرض بعيدة وهو مفتكر في خلاص إخوته إذ ساق غنمه إلى ما وراء البرية رأى العليقة المشتعلة بالنار ولا تحترق أغصانها. وعزَّاه الرب وكشف له سر الخلاص.

وفي سنة وفاة عُزيّا الملك الذي عقد بنو إسرائيل عليه رجاءهم للخلاص بعد أن ضُرِبَ بالبرص في أيامه الأخيرة ومات معزولاً.. دخل إشعياء النبي وهو مهموم إلى مقدس الله فرأى السيد الرب "**جَالِساً عَلَى كُرْسِيٍّ عَالٍ وَمُرْتَفِعٍ، وَأَذْيَالُهُ تَمْلأُ الْهَيْكَلَ**" (إش ٦ : ١). والشاروبيم والسرافيم حوله وسمع صوت التسبيح الشاروبيمي وعلم أن الله في وسطها فلن تتزعزع فتعزت نفسه بالرؤية وعزَّى شعبه أيما تعزية.

وحزقيال النبي وهو بين المسبيين في الأرض الغريبة وفي مذلة السبي وظلمة العقاب في هدم أسوار أورشليم وخراب الهيكل.. عزَّاه الرب برؤيا عرش الله ومركبة الشاروبيم بأوصافها العجيبة المملوءة أسرار، ووصف ما رآه نار متواصلة ولمعان

كالبرق وأربعة حيوانات مملوءة عيوناً ولها أربعة أوجه وستة أجنحة وبكرات أُطُرُهَا عالية ومخيفة وعرش تحمله الحيوانات والجالس عليه ضابط الكل وماسك الكل. فتعزّت نفسه عوض المذلة الأرضية بالأمجاد السماوية الفائقة.

ولا يوجد ما يعزِّي النفس ويغرس فيها الرجاء في أزمنة الضيق سوى هذا المنظر نفسه - الله في وسط شعبه.. الله يفتقد أولاده.. الله ضابط الكل. وهذا المنظر نفسه الذي تراءى لرجال الله القديسين وأنبيائه بالروح هو هو.. فكر الله الذي رأيناه وحل بيننا، هو المسيح متجسداً من العذراء.

هذا هو عزاء ورجاء العالم كله. منظر والدة الإله وسر حلول الله وافتقاده للبشرية "**الْمُشْرَقُ مِنَ الْعَلاَءِ. لِيُضِيءَ عَلَى الْجَالِسِينَ فِي الظُّلْمَةِ وَظِلاَلِ الْمَوْتِ**" (لو ١ : ٧٨ - ٧٩).

العذراء هى العليقة المشتعلة بالنار، ومن يقترب إليها لابد أن يخلع نعليه.

العذراء هى كرسي الله العالي الذي رآه إشعياء النبي.

العذراء هى مركبة الشاروبيم بكل ما حوت من أوصاف وأسرار فيها نار الحب المتأجج.. حب الله لشعبه.

وفيها علو التدبير وعيون معرفة الشاروبيم للأسرار التي لا يُطّلع عليها.. وفيها ملء الروح الذي يقودها خلواً من إرادة

البشر ومشيئاتهم.. وفيها جلس الضابط الكل الذي منه وبه كل الأشياء.

وإلى كل مُضطهَد أو غريب يُرسِل الرب هذا المنظر لتجديد الرجاء وثقة الخلاص، وإلى كل مسبي في أرض الخطايا، وإلى كل مَنْ تسلّط عليهم إبليس، يكفيهم أن يفتحوا عيون قلوبهم وينظروا إلى العذراء القديسة وهى تحمل مُخلِّص العالم.

وإلى كل يائس من ظلام الماضي أو مجهول المستقبل يوجد في منظر ضابط الكل المهتم حتى بشعور رؤوسنا أعظم رجاء وثقة في أننا نُقشنا على كفه بالمسامير وإن من يمسنا يمس حدقة عينه.

وكما كان في الرموز والظلال أن الرب عزَّى مختاريه بمناظر التجسد ووعود الخلاص فبالأولى كثيراً يكون لنا نحن الذين صارت العذراء لنا أماً.. نحبها ونحتمي فيها ونثق أن شفاعتها قوية ومقبولة لدى مُخلِّصنا الله.